كوسكار للنشر
الإلكتروني

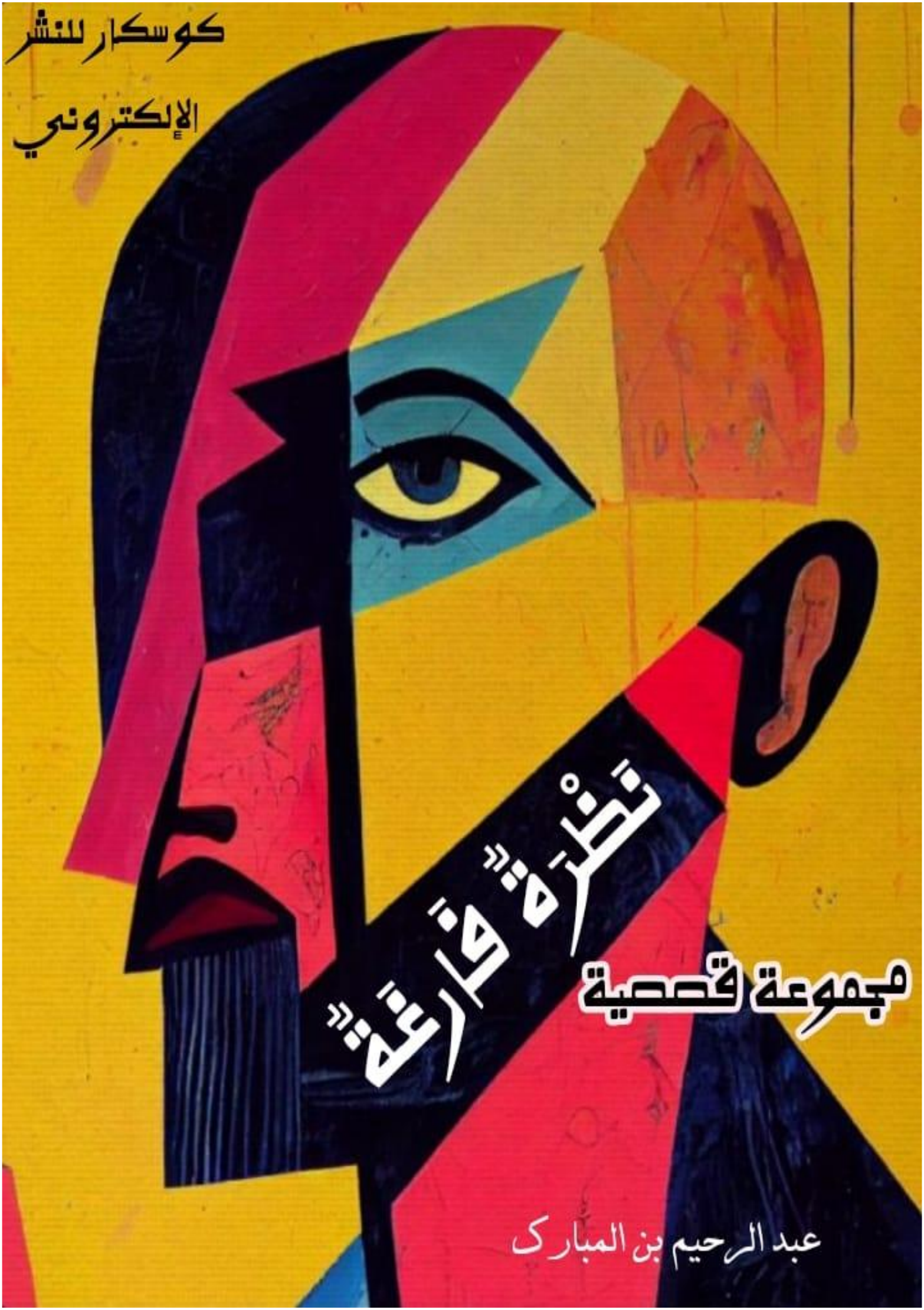

نظرة فارغة

مجموعة قصصية

عبد الرحيم بن المبارك

نظرة فارغة

مجموعة قصصية

عبد الرحيم بن المبارك

كوسكار للنشر الإلكتروني

2025

قال الله تعالى : " فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " سورة الحجر الآية 29

إهداء إلى كل من يرى في الإنسان الإنسان وكفى.

القاع

فتاة من بعيد مهرولة تريد لحاق الحافلة كيلا تتأخر، رئيسها سيكون في انتظارها، ليتفوه بكلامه البائس، لذلك تحاول جاهدة على الدوام أن تضبط الوقت، رغم إكراهات المواصلات. ربما..

طفل يحمل محفظة أثقل من وزنه، يزدرد بعض الخبز المدهون بالزبدة، قد يكون جبنا!

ذلك مستبعد جدا، أسرته بالكاد تجد ما تأكل. ربما..

طفل آخر لكن وضعه مختلف، سيارة النقل المدرسي تحمله من باب منزله إلى المدرسة، وزنه الزائد يُظهر قلة حركته، وكذا حقيبته الصغيرة فيها طعام يكفيه يومه. ربما..

أما الأول فبدا شاحب اللون قليل اللحم.

عامل البناء على دراجته العادية، مسرعا نحو بائع الفطائر، كأس شاي ساخن مع فطيرة بالعسل، يأكلها على عجل.

المتشرد جالس على الأرض، الحمام ينزل بجانبه لالتقاط فتات الخبز، الكلب بجانبه يراقب الحمام، لاهتا، لعابه سائلة.

القط تجود عليه المارة بالحليب والجبن، هو ماهر في استجداء تعاطف الناس، مواء بعد الاقتراب من الأرجل، نظراته بريئة.

بعد ارتشافه لآخر قطرة من القهوة، ينظر نحو قاع الكأس في اندهاشه المعتاد، يلملم ملابسه، يخطو ببطئ مبتعدا، موزعا نظراته بين ساعة يده، ومكانه على ناصية المقهى.

شرف السرقة

- هل سنسرقها؟

- نعم استعد.

- لكنها امرأة، قد نصيبها بالذعر، هي مرهفة الحس بالتأكيد كطبيعة النساء.

- لم أقل لك حلل لي طبائع الناس، إذا وقفنا بجانبها، أخرج السكين، لن تتأخر في منحنا كل ما تملك.

- إذا رأت السكين قد تغيب عن الوعي، وسنفِرِّ بعدها، لا نحن سرقناها، ولا نحن تركنا المسكينة تمضي لحال سبيلها.

- هل تريد أن تقنعني أنك شريف، لا وجود لسارق محترم، سواء انتشلت، أو قطعت الطرق، أو حملت قلما، السلة واحدة.

- انتظر قليلا، ذاك الطفل يلحق بها، قد يكون ابنها.

- لكنه صغير، لن يقاومنا.

- لا أحدثك عن المقاومة، أليس عيبا أن نفزعه هو أيضا.

- ها قد عدت من جديد لشرف السرقة.

وراحا يتناوبان على الإمساك بطرف حديث يكاد لا يستقر عند أحدهما.

انحنت، قبلها ابنها في خدها، كان قد أوصاها ببعض الدراهم، نسيت تركها تحت مخدته، استيقظ بعد إغلاقها للباب، من حسن حظه لا تزال في طريقها للشارع حيث ستمر الحافلة.

السارقان أعينهم بين طفل باسم فرح بدراهم معدودة عائد إلى المنزل، وأم منتشية بتحقيق مراد ابنها على قِلَّتِه قاصدة عملها، وفراغ شاسع دَوَّى فيه صوت سيارة الشرطة في دوريتها الصباحية.

مرأى موحش

قررت أن أخرج مني، أن أبتعد أو أطير، أن أرى من مكان لست فيه، لعلني أبصر الحقيقة؛ التي لا تُعرف وأنا أنظر من زاويتي المعتادة.

وقد حدث فعلا أن انفصلت عن جسدي، دون أن أموت، ظلت فيَّ الحياة، حلقت بعيدا لأراقبني.

جلست على كرسي، ولم يتأت لي رؤية أحد سواي، حجب عني الجميع، وكأن مصباحا يسلط الضوء علي وحدي، تجاذبني الفضول، طفت بعيني لعلني أجد أحدا أراقبه، فما أبصرت عيني أحدا.

كنت هناك قد بدأت عاداتي اليومية، ولا زلت أحاول جاهدا ألا أركز نظري معي.

ولأنه لا مفر من استقرار عيني على أي شيء تنظر إليه، كان من المفروض أن أتبع خطاي.

نمت وحالما صحوت حملت هاتفي الذكي، لقد بدا الأمر مريبا، فلم هذا التعلق به، ولم أحتاجه! أنام وهو بجانبي، أحمله في جيبي، لا أهدأ اليوم كله وأنا أحدق به.

لقد أبصرت بوابة فتحت مع إمساكي له، فكنت كأنني في مكانين، وسمعت صوتا خافتا يحدثني من عقلي: لقد تهْتُ.

ونطقت يدي: تعبت من الوضعية التي بها أحمله لساعات.

وعيني: هذا الضوء المنبعث منه يؤذيني.

وظهري: قريبا سأفقد ليونتي.

وعنقي: سأنكسر.

الكل في يئن، ويكأنها فرصتهم الذهبية لتقديم الشكوى التي ما أمكنني سماعها من قبل.

أخذت فطوري، شغلت هاتفي لأشاهد أي مقطع مصور، ونادتني بطني: هذا الأكل يفقد قيمته، إنك لا تمضغه جيدا، مما يعسر علي هضمه، وإنه أكثر من اللازم، فلم أنت نهم هكذا!

بئسا لم أنتبه من قبل.

ضاع مني الوقت، يجب أن أسابق الزمن للوصول إلى عملي، فأوقفني جهازي العصبي: لماذا تقصد إنهاكي! إني على وشك الانهيار، امتلكت متسعا من الوقت لكنك ضيقته.

بدأت أشعر بالضيق وأنا مشدوه أسمع وأراقب تصرفاتي البائسة، أنا هناك أقضم أظفاري ولا زالت أماكن سيارة الأجرة لم تكتمل، وبعد انطلاقها عيني لا تنفك تنظر نحو ساعتي التي أهملتها عند الفطور، الإشارات الحمراء كأنها أعدائي، كل نازل كأنه يقصد تأخيري.

وبدوت كفريسة يتبعها مفترس، تفر ويعدو بأقصى سرعته ليلتهمها.

العرق يتصبب من جبيني، قلبي ينبض بشدة.

انتهى الدوام، رجعت أجر رجلي من الانهاك الذي أثقلها، ولأن الجوع قد أضمر بطني ما انتقيت ما آكل، إني أشاهد ذاك الطبق الذي أتناوله، وأشمئز منه، لكنني حينها أستلذ به، أبلع ومصاريني تصرخ ألما من زيت توالى الطبخ به لأيام، الملح زائد عن اللزوم كذلك الطعم الحار، كأنهما يخفيان فساد تلك المأكولات.

ولأن البطن هي العقل الثانية، لما انسدت وانتفخت، ما عدت أفكر إلا في معانقة وسادتي، والاستلقاء على سريري، أحسست ببطئ حركتي، وخمول وكسل شديدين.

وضعت يدي على وجهي لكيلا أراقبني مرة أخرى، فما أفعل بنفسي تعذيب وليس عيشة، ففاجأني صوت جلبة، أزلت يدي فإذا بشباب نشط يركض، تقفيت أثرهم، حتى انتهوا إلى صالة رياضية قليلة الرواد.

وتساءلت: ما الذي يشغلني لأكون مثلهم؟

ثم رجعت للتحديق بي، فوجدتني في سبات عميق، ساعة يدي تُخرج عقاربها لتلسعني، ولا أستيقظ، ساعة الحائط تنقر رأسي، ولا أستجيب، المؤذن يرفع الأذان قرب أذني، ولا أنهض، الرجال يسكبون علي الماء ليصحبوني إلى الصلاة، ولا ألبي.

إن ما شهدت ساءني، وهممت بالعودة لجسدي فما عدت أتحمل بشاعة تصرفي، فحتى بعد استيقاظي لم أفعل شيئا نافعا، حملت هاتفي مجددا ويكأن أمرا عظيما فاتني، ولا بد لي من متابعته.

حاولت جاهدا العودة، بيد أن شيئا يشدني من الخلف، التفت لأرى شيخا كبيرا وامرأة فاتنة، صرخت: اتركاني، لكن الشيخ ابتسم قائلا:

اهدأ، لم تريد العودة؟ ودع جسدك، اتركه يفعل ما يشاء، إن التعقل سيفسد عيشتك، لا تنتبه، وقالت الفاتنة: أنا معك، أنا لك.

لقد سرى صوتهما بداخلي، وبدأت أرتخي، وعزيمتي التي شحذتها ضعفت، وعقلي كأنه مخدر، قاومت لبعض الوقت، ثم عدت للارتخاء.

الوقت ينفد، إن لم أتمكن من الرجوع ستنفصل روحي عن جسدي، قد أتوه عني لأتركني أموج مع حياة عبثية لا خير فيها، لن أجدني مجددا.

أحسستهما يحكمان القبض علي، وما وعيت كيف أنفك منهما، ولا زال حديثهما يغريني بالبقاء بعيدا عني، ولا زلت أفقد عزمي شيئا فشيئا.

بدأ الاستسلام يأسرني، كسمكة في مقاومتها الأخيرة بعد الاستكانة في الشباك، ألتفت بين الفينة والأخرى نحوي وحالي كما هو، إما نوم، أو شغل شاغل لا فائدة فيه، تعب وضنك وتيه.

فجأة وجدتني جالسا مع الشيخ والفاتنة حول مائدة، الخدم يضعون الطعام والشراب، الفاكهة وكل ما أشتهيه، فكيف عرفوا طعامي المفضل! وكيف بهذه السرعة حضروه.

يدي لم تصبر فامتدت نحو الأكل، شربت ذاك الشراب الذي أحبه، وبعدما شبعت شعرت بجفوني تسدل الستار عن عيني، تمددت على السرير، فقال الشيخ: هنا راحتك، نم ولا تفكر في شيء، وارتفع صوت الفاتنة بغناء تغشى في مفاصلي فهدأت.

وكلما تذكرت أمر الرجوع لجسدي، أجد أصابع الفاتنة تدلك ظهري، ويبدأ الشيخ من جديد مرسلا خطابه بضرورة أخذ قسط من الراحة.

راودني شعور غريب، كأنني لم أكن حيا من قبل، وتأملت قليلا، ثم فتحت عيني ولم أدر كم نمت!

يا لحظي العاثر! لما نويت إدراك كنه الحقيقة تربص بي هذان، بحثت عني فلم أرني، خفق قلبي، ركضت كالمجنون الذي لا يعلم مستقره، وتساءلت لأول مرة من أكون؟

أأنا إنسان! وأين إنسانيتي! من أين أبدأ؟ وأين أنتهي؟ بل وقلت وأنا أحملق في السواد الذي بلغني وقد توارى عني الشيخ والفاتنة: ما البداية والنهاية!

لقد فقدت الإدراك تماما، وكل كلمة أنطق بها أحتاج فهمها، ولم يسعفني عقلي لبيان ماهيتها.

حينها اضطرب شيء ما بداخلي، اهتزاز لم أستوعبه، لا أنكر أنني خفت، فانسكب الدمع من عيني، وناديت رافعا يدي أدعو : يا الله تداركني، من لي سواك أرجوه، وها أنا أعترف بعجزي، بضعفي، بقلة حيلتي، كنت جاهلا وأعترف بجهلي، بتوهم العلم، بعلمي الزائف، يا رب أرجعني إليك لا إلي، فلم أعد أثق بي.

انتظرت الفرج، ثم أعدت مناجاتي المرة والأخرى والأخرى، فانبعث نور خافت من مكان، دققت النظر فتوهج النور، إني هناك، أبصرتني أمشي على ركبي، قاصدا كتابا، وتتجاذبني مغريات تثقل كاهلي، يرميها علي تارة الشيخ، وتارة الفاتنة، لكنني أقاوم، نعم هناك أقاوم، ولم يسبق أن تحملت هذا الكم الهائل من الفتن الملقاة في طريقي، حتى أمسكت الكتاب، وما إن فتحته سُحبت إلي وأنا أتلو

كلام الله، أزيل الغبار عن مصحفي، ومعه تخف روحي، ويهدأ بالي، ويطمئن قلبي.

الحبل

- هل ترى الحبل؟

- أي حبل!

-هذا الملتف حول عنقي، المربوط بسيارتي؟

-أهذا كله لكيلا تمنحني بعض المال! أنتم الأغنياء بخلاء.

-بل أنت الغني، لأنك لم تر الحبل.

عند شارة المرور كانت الحركة نشيطة، نساء ورجال وأطفال وشيوخ يمرون من أمامهما، وكل مارٍّ وحاله.

-أترى تلك المرأة المتأنقة؟

-ما بها؟

-لا شيء، ولكن أريد أن أسألك، كيف تراها؟

تفحصها جيدا ثم قال:

-غنية.

-بل أنت الغني، قلت لك أنك محظوظ لأنك لا ترى الحبل.

-عدت مرة أخرى للحبل.

-نعم، لأنني أراه، من عنقها مربوط إلى حذائها، إلى ساعتها، إلى هاتفها.

لفت نظرهما رجل متبختر في مشيته، فقال المتشرد: أهذا أيضا يلتف حبل حول عنقه!

-هذا أكثر الخلق اختناقا، تراه متكبرا متباهيا، وأراه مسكينا، لا يقدر أن يرى إلى الأسفل، فالحبل مشدود بقوة، مربوط بكل شيء يملكه، لقد فُقد لما أسلم نفسه لأعين وآراء الناس.

وقبل أن ينصرف المتشرد باحثا عن دريهمات قد يجود بها صاحب سيارة غير الذي قصد، تذكر سؤالا، رجع خطوات إلى الوراء، انحنى ليقول للرجل: لنفرض جدلا أن هناك حبل فعلا، فمن ربطه!

انتشى الرجل، فقد بدأت فكرته تشق طريقا لتستقر مع قناعات أحدهم، ابتسم، ثم أجاب: القرض.

ظن أنه يسخر منه، وقال: أتهزأ بي، قرد يفعل بكم هذا!

-ولم العجب، القرض هو من أحكم ربط الحبال حول الأعناق، من جعل كل من ترى يركض بدون وجهة، من سلب سعادة الناس وأبدلها بوجوم يعلو محياهم، بل حياتهم.

-لقد مررت قبل قليل بحلقة كان فيها القراد هو من يلف حبلا حول عنق القرد، ويدور القرد في الهواء، وبعد انتهاء العرض جمع القراد المال من الحاضرين، وقدم الفول السوداني للقرد، لقد بدا فرحا بنصيبه من العائدات.

تعالت قهقهات الرجل: قصدت القرض بالضاد وليس بالدال.

أجابه متهكما: لا يهم، ركز فقط على الحبل كما كنت مركزا عليه من البداية.

عاد إلى مكانه بعدما سُمح للسيارات بالمرور، وقد سمع الرجل يقول شاردا : بالدال أو بالضاد، كلاهما سيان، فلا ننال مع القراد إلا على الفول السوداني.

صنم الزاوية

نفس المكان، نفس الوضعية، نفس الزاوية، نفس النظرات.

لم أشأ الإفصاح عما يجول بخاطري، لكن يجب أن أحدثك عنه، قصدته يوما، ألقيت عليه التحية، ردها بإشارة يد.

- ما الذي أثارك فيه؟

- صبره، هذا ما أدهشني، كيف يصبر طول تلك المدة، مسندا ظهره للحائط، تارة جالسا، تارة واقفا، مشيه كان من مكانه إلى داره، ثم الرجوع إلى زاويته.

- هل قبل تجاذب أطراف الحديث معك؟

- نعم، كأنه انتظر من يبادر لذلك، أن يسلم عليه ولو من بعيد، أن يسدي له نصيحة تبعده من مكانه الذي حكى لي أنه ملَّه، لكنه لم يجرؤ على الابتعاد عنه، والخروج عن المألوف عادة ما يكون صعبا، صعب لدرجة فقدان التفكير فيه، قد نراه يسيرا، أما من تلفه خيوط العنكبوت تسلب حركته.

ارتسم على محياه أسى شديد، ثم قرفص، قرفصت مثله واضعا يدي على ظهره، فقال: أنت لست أول من قصدني للحديث معي ونصحي، قبلك رجل لم أره منذ زمن بعيد جدا، ما ترك يوما إلا وقف بجانبي بنصح كنت أعتقده ثرثرة، ولطالما نفرت نفسي منه حينها، وأبديت امتعاضي من وقوفه بجانبي.

حاله وهو يحكي كان مؤلما لموتى القلوب، فما بالك بمن قلبه يحن ويرحم، أكمل: المصيبة العظمى أنني صرت موظفا.

سعدت بما سمعت، فقلت: هذا جيد، تحتاج وظيفة.

لكن وجهه تمعر، وقال بنبرة حزينة: دون أجر، كان عون السلطة يسألني عن الناس، متى يخرجون؟ مع من يتكلمون؟ ماذا يجلبون إلى بيوتهم؟ وكنت للأسف دقيقا في تبليغ ما يحتاج، حتى أن العون ترقى وتحسنت أحواله المادية بما جمع مني من معلومات، فقد تملكني في هذا المكان فضول غريب تجاه المارين من أمامي صباح مساء، يقضون ما يقضون في هذه الحياة، ويعودون لدُورهم، ولم أتحرك من مكاني.

كنت في الصغر طموحا، أدرس بجد واجتهاد، تميزت في مادة الحساب، كنت الأول دائما، لم تمتد يد العون حينها لأستمر في التفوق، كان علي أن أساعد والدي في بعض الأعمال التي يكسب بها قوت اليوم، أهملت بعدها دراستي، ولأكن صريحا ليس بسبب عملي مع والدي، وإنما صحبة سوء جرفتني إلى المستنقعات، تلطخت بوحلها، وما عدت إلى رشدي إلا بعد مرور زهرة حياتي، ريعان الشباب قد استل من ذواتنا، وأبدل مكانه خمول فكري وبدني جعلني ألازم حائط زاويتي.

- ألم تسأله لم قبل بأن يكون عينا تترصد الخلق، وبدون أجر، هذا عجيب.

- لن تعجب بعد أن أخبرك بجوابه، فما فاتني أمر سؤاله، قال: سبب قبولي لوظيفة دون أجر الفراغ، كنت بحاجة لأن أملأ وقت مكوثي في زاويتي، نشوة العد اللامتناهي ما عادت تمتع، سيجارتي صارت

ألما أتجرعه كلما نفتث الدخان، وسرحت بعيني إلى أن يتلاشى في الهواء، تلك النقاشات الفارغة التي كنا تتسلى بها لم تنتج فكرا، بل زادت الطين بلة على أدمغة تسرب إليها الخنوع والاستسلام، أصحابي الذي اصطفوا معي منذ البداية رحلوا، منهم الميت، ومنهم من ركب قوارب النجاة، في نظرهم، إلى الضفة المشرقة، ومنهم من كسر قضبان الزاوية، ولما تحرر لم يكلف نفسه عناء تفقد حالي، أو نصحي،

استوقفته: لكن لم تلوم أصحابك بعدم النصح؟ قد نصحك كما أخبرتني أحدهم لكنك لم تستجب.

فأجابني بعدما نظر أخيرا إلى وجهي، فقد كان طول الوقت مبتعدا بعينيه عني: كان الأولى أن ينصح، فما يعرف الناصح متى تثمر نصيحته، وإلا لما تذكرت الرجل ولما أخبرتك عنه، ذلك لندمي الشديد أني لم أعض على صحبته بالنواجذ، فقد كان طوق النجاة الذي رجوت أن يخرجني من بحر مضطرب يأخذني إلى حيث صرت، أرفع تقارير بائسة، فلان دخل الساعة كذا، خرج الساعة كذا، اشترى تسع بيضات، زارته عمته وأبناؤها، وفلان لم يخرج اليوم وقد أتاه صديق له، مكث معه ساعتين، وفلانة تلتقي بصديقاتها المائلات عن جادة الصواب، وفلان وفلانة.

- ألم تسأله عن عمره!

- لا، لكنه بدا في الخمسينيات من العمر، شيب شعره أكثر من سواده، كذلك في لحيته، هزيل البنية، غائر العينين، لكن الألم ما نطق به لما هممت بالرحيل، حين قلت له: منذ متى وأنت على هذا الحال؟

شعرت كأنني قبضت قلبه بيدي، وعصرته بشدة، لما قال بصوت مبحوح، بعد أن تريث قليلا قبل أن يجيب: منذ عشرين سنة.

ثم فغر فاه مشدوها، كأنه للتو شعر بالوقت الذي مضى.

حياتان

في الغد الموعد، مر الأسبوع وظل يرقبه متخوفا من عاقبته.

في الساعة الثامنة كان الجو ممطرا، ومع البهجة التي تحل مع نزول المطر، بدا سكان المدينة متذمرين من صعوبة الوصول إلى عملهم، ولسان حال بعض الغافلين منهم: ما الذي يستفيده أهل المدينة من المطر!

سيول الماء جارية في الشوارع، وهكذا على الدوام حين ينشر الله رحمته، فالبنية التحتية تم تهيئتها في التقارير، أما الواقع فواقع.

اللحظة حاسمة، سيخبره الطبيب المعالج بنتائج التحاليل الطبية، الأمر الذي جعل كل تفكيره ينحو إلى السلبية، والتفكير في المصائب يجلب التعاسة، والمشاكل ولود.

حمل المظلة ولم يشأ الاستعانة بالمواصلات، زحمتها صباحا تزيد الضغط، لذلك قرر المشي، مع أن المسافة ليست بالقصيرة، إلا أنه أحب ذلك.

بعبوس وجه قابله الطبيب المعالج، علم معها بما سيقول قبل أن ينطق، وقد تبدلت الحيطان حولهم للون الأسود القاتم، لباس الطبيب، علبات الدواء، المنشفات، حتى المناديل التي حملها بيدين مرتجفتين ليمسح بها عرقه الذي رآه أيضا أسود.

قال الطبيب بدون مقدمات: إن النتيجة إيجابية للأسف، والمرض ينتشر بسرعة في سائر جسدك، الوقت قد فات.

الوقت فات.. الوقت فات .. الوقت فات ...

تردد الصدى، تأرجح عقله بين مشهدين لفترة قصيرة، ومع تردد صدى قول الطبيب، لام نفسه: لم بقيت طول هذه المدة مترددا! هي خطوة واحدة بسيطة، هولتها كلما هممت بحمل التحاليل المخبرية، والخوف من هاته النتيجة ما أخره إلى أن فات الأوان وانسد الأفق.

لقد صارت العيادة كأنها قفر خالية، يحمل الطبيب الفأس ومعاونوه من الممرضين يحفرون قبره، وهو في الزاوية يبكي، ماذا قدمت لحياتي!

أهذه النهاية! أهذا كل ما سعيت له!

تلقف اليأس كل محاولات الانعتاق من أوحال التوقعات البائسة، فلم تظل ولو فكرة واحدة تبعث الأمل، وتنعش الروح.

الجثة هامدة فوق النعش، محمولة فوق الأكتاف، ولا وجهة غير المنزل الأخير، ودموع الحسرة تنهمر من عينيه.

ها قد أتى المعزون بعدما دُفن، الأصدقاء والعائلة، وصوت البكاء يعلو من كل الجهات، إلا الأطفال يلعقون الحلوى، هم لا يعرفون الموت.

كفكف دموعه، صدره ضاق، عينه احمرت، الأسى نملكه، نظر من نافذة بيته بعدما أزال ستارها، فأرسلت الشمس أشعتها لتغازل جفونا أرقها السهاد.

نعمة مستورة

مظاهر الفرح بادية على الحي، نصب الصيوان، وتوافد المدعوون. الدفوف تُضرب والطبول، الفرقة الفلكلورية مصطفة في صفين، صف للرجال، وصف للنساء، يهزون أكتافهم، ويصفقون بأيديهم.

القادمون يلتحقون للجلوس بعدما اختاروا أماكنهم حسب اقترابهم من معارفهم، لا ينوي أحد أن يصير جمادا.

الخدم متأنقون، بذلهم رسمية، سراويل سوداء، قمصان بيضاء، ابتسامتهم على محياهم، لا يملون من الترحيب بالضيوف.

ملأ الصيوان على آخره، وعلا الخُون أطباق لحم بقري باللوز والمشمش المجفف، المرق كأنه عسل.

امتدت الأيادي لتنهش اللحم، الأفواه مفتوحة، الفكوك مشغولة بالمضغ، والألسن بالتمذق.

بعد اللحم، وضعت صحون الدجاج المحمر مع المرق، وما بقي في الأخير إلا عظامها، فقد كانت مطبوخة جيدا، وشهية.

وختاما مع الفاكهة، براريد الشاي، والحلوى.

لم يكونوا على علم بسبب الاحتفال، وجهت زوجة الحاج الدعوة لهم، دون أن تفصح لهم عن شيء آخر.

عزفت الموسيقى، زمر المزمار على أنغام أمازيغية أصيلة، وبدأ صوت المغني يعلو بعدما همست زوجة الحاج في أذنه.

" الحاج يا الحاج على سلامتك يا الحاج..

الحاج يا الحاج على سلامتك يا الحاج"

وتتقدم صفوف الرجال نحو صفوف النساء، يهزون أكتافهم، ويصفقون بأياديهم، ويتقافزون.

نزل إليهم الحاج، توسط الجمع، ثم قال : لا تنسوا ما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم" الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني في بدني".

وقلب كفيه، مسح بهما وجهه، وانصرف وهو يهمس: اللهم عرفني نعمك، وأعني على شكرها.

الذين عرفوا سبب اجتماعهم فرحا بالحاج، قلبوا كفوفهم مثلما فعل، وحوقلوا.

المقابل

في القاعة العامرة بالمساكين، ننتظر مترشحا سيقدم بين أيدينا مشروعه، وإن أقنعنا سنزكيه ليكون ممثلنا.

لم يتأخر عن موعده ولو بثوان معدودة، وهذا ما أعطانا انطباعا أوليا على جديته.

وحين بدأ الكلامَ كان إنسانا، وما أشحت بصري عنه، بعدها كأنما تبدلت عيناي، رأسه قد أصبح فجأة رأس ذئب، ثم رأس أفعى غرست أنيابها في رمشة عين في أعناق الحاضرين، ثم سمعت النباح.

لم أتحمل المشهد فرفعت صوتي بالاعتراض، قائلا للحضور: إنه ينبح.

لكنهم التفتوا نحوي، وأبصرت رؤوسهم رؤوس أسود، وأصواتهم بالزئير علَتْ، وبعد التفاتهم نحو المسؤول تحولت رؤوسهم إلى رؤوس حمير تنهق.

وقد كانت أياديهم في جيوبهم، يحكمون بها قبضتهم على شيء يخافون ضياعه.

وكنت كلما هممت بالنطق، ارتفعت أصواتهم أكثر بالنهيق، وصرت كأنني أنهق معهم، صارت أرجلهم حوافر تركلني بقوة، وأنا أنهق، لا بل أشهق، لا بل أقول الحق.

ومع علمهم بإصراري وتمسكي بموقفي مدوا إلي ورقة علَّني أصمت، أو إن أبيت الصمت يُسمحُ لي بالنهيق.

رأيت الورقة فعرفت بم يمسك هؤلاء المساكين، عفوا الحمير.

نظرة فارغة

مع أن صاحبي كان غنيا، لكن قد جمله التواضع، وليس مثل أولئك الأغنياء المتعالين، الذين يحسبون أنهم أحسن من الناس.

وقد كان عابثا، يحب المزاح، ليس للتنقيص من شأن وقدر الخلق، بل لتوجيه فكرهم وتصويب اعوجاجه.

دعاني في يوم أن نعبث مع بواب إدارة، لم أستحسن الفكرة، فاستعطفني لأرى بأم عيني واقعا آلت إليه الحقيقة المرة.

أمسك يدي واتجهنا نحوه، وما إن رآنا حتى وقف، طالبا منا الانتظار، رافعا يده.

بادره صاحبي فقال:

- أريد مقابلة المدير.

بلا مبالاة أجاب:

- غير موجود، هو في اجتماع في الإدارة المركزية.

- ومتى يعود؟

- لا أدري.

نظر صاحبي نحوي، ثم ابتسم، أخرج محفظته المليئة بالأوراق النقدية، هي ليست عادته، فما تباهى أمام أحد بماله، لكن تعرية

لحقيقة نسعى جاهدين لإخفائها، وهي المال يشق طريقا في البحر، وحقا الحقيقة كصحراء مقفرة.

أخذ ورقة واحدة، مدها إليه، تسلمها ناظرا إليها بشغف شديد، ولم يعد نظره موجه صوبنا، وما عادت نبرة صوته حادة، وما بقيت أكتافه متصلبة، ولا هامته منتصبة.

بصوت خافت قال:

- انتظروا لحظة، ربما لم أره حين دخل.

انصرف عنا، إلا أن صاحبي دعاني للمغادرة، وقد علا محياه الحزن، وقال:

- هب أن فقيرا قصد الإدارة لحاجة ملحة، يلزم قضاؤها في أقرب الآجال، أيميته التماطل و الانتظار!

- لا عليك، تراها أنت غريبة، لكن الفقير اعتادها، حتى إذا قضيت مصلحته في الحين، ظن أن في الأمر مكيدة.

صاحبي عابث، وأحب زيادة العبث، طلب من أن أتبعه حتى دخلنا محلا لبيع الملابس، وقبل أن أسأله عن سبب مجيئنا، أمر المسير أن يجد مقاسنا بأغلى وأجمل ما عندهم بالمحل.

رفضت لكنه أصر.

لبسنا ثم سرنا، كانت طريقنا هي طريق نفس الإدارة، فسألته:

- أين تقصد الآن؟

- أريد مقابلة المدير.

- لكن لم!

- لا لشيء إلا لاختراق حصون البواب مرة أخرى.

- وإن سمح لك بالدخول؟

- سأدخل وأخرج في الحين.

اقتربنا، فوقف البواب مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يرفع يده، وإنما تساءل:

- من حضرتكما؟

لم يبتسم صاحبي، وما نظر إلي، ظل رسميا في تحركاته وكلامه، وقال:

- أريد مقابلة المدير.

بمسكنة أجاب:

- هل من الممكن التعريف بنفسيكما، فقط لأخبره.

- قل له صاحباك، وهو سيعرفنا.

- حسنا، تفضلوا بالدخول إلى أن أعلمه بقدومكما.

دخلنا، انصرف هو لإخبار المدير، طلب مني مرة أخرى أن نغادر، وقد حبس صوت ضحكاته بيده، حتى خرج فانفجر بالضحك.

سرعان ما انقلب حاله من الضحك إلى شدة تنزلت على صدره، وانكشفت في وجهه.

ربت على كتفه، وقلت:

-ربما يكفي عبثا مع هذا الرجل، حتى هو إن سألته وهو بعيد عن عمله سيخبرك أنها تعليمات ليس إلا.

- تعليمات! هل تبحث له عن أعذار! هل التعليمات تسلب منا الإنسانية!

ارتبكت قليلا، ثم قلت:

- قد يكون مغلوبا على أمره، إن الرزق في هذا البلد صعب اكتسابه.

- ربما كنت على صواب.

رفع رأسه للسماء هنيهة، ثم أمسك بيدي راكضا، إلى أن بلغنا منزله، دعاني لركوب سيارته الفارهة، ولا يزال في عبثه الذي لا أعلم متى ينتهي.

ومرة أخرى يقصد نفس الإدارة، وجوابه عن سؤالي: أريد مقابلة المدير.

رأى البواب السيارة ركنت بقرب الإدارة، فانبرى لفتح الباب، ورحب بنا، لم يسألنا بعدها عن شيء، بل دعانا للدخول، وكانت طريق مكتب المدير معبدة.

دخلنا فوجدناه جالسا، سلم صاحبي عليه ثم سأله عن أشياء وانصرفنا.

وعجبت من البواب الذي لم يعرفنا، بالرغم من ترددنا عليه ثلاث مرات.

ربما لم يرنا!

المعشوقة

ركنت الحافلة قرب المحطة بعد أن بلغ دخانها الأسود المنبعث من العادم عنان السماء، وضع الناس أياديهم على أنوفهم، وسعلوا سعالا شديدا، صعدت بعد أن دفعت ثمن التذكرة، لم أجد إلا مكانا واحدا فارغا قرب فتاة متبرجة تبرجا فاضحا.

ولأني كنت تعبا جلست بجانبها.

كان الأشقياء من الفتية يغنون ويهتفون، ويتحدثون بصوت عال، وحرام في شرعهم دفع التذكرة، ولما خاف أحدهم من المراقبين ما اضطره لشراء تذكرة، صار خائنا لهم، وموضوع سخريتهم.

بدا على الفتاة بجانبي ضجر، أو حديث ترجو أن يسمعه منها أحدهم، قلبت رأسها يمينا وشمالا، ثم قالت وهي تنظر صوب الأشقياء:
هؤلاء لا أعلم أين أصنفهم! أهم ضحايا أم جناة؟

أجبتها وبصري أيضا ينظر نحوهم: في سنهم هذا ضحايا، وإن ظلوا هكذا سيصيرون جناة، وبعدها سيرَبُّونَ ضحايا، ثم الضحايا سيصبحون جناة.

شعرت بدهشتها مما قلت، ضحكت : وما الحل ؟

- أن تُقطع حلقة من حلقات العقد.

- أي عقد؟

- عقد لولبي، يحتم على التالي اتباع السابق.

ولما حسبتني أولد فكرا من خلال نقاشي معها، وقد بدأ الاكتضاض في الحافلة يضيق النفس، ويسيل العرق، ويكثر الجلبة، فاجأتني بتيه أصابها، وشخوص بصر هالني، ثم ارتخى فمها، وبدأت تهذي:

- هل تؤمن بالجن العاشق، الذي يحب امرأة أو جنية تحب رجلا، ويتزوج منها أو تتزوج منه، وينجبان أطفالا.

لم أستطع جبر خاطرها لأنني لم أصبر على ضحكة صعدت من الأعماق، فاستغرقت في الضحك حتى أدمعت عيناي، لم أكثرت بعدها لحملقة كل من في الحافلة فيَّ، كأنني مجنون.

عدت لرشدي بصعوبة، وهي لا تزال في ذهولها من ردة فعلي، فأردفت:

- هل قلت ما يثير سخريتك، اعتقدتك عاقلا.

- عذرا، لكنك أضحكتني فعلا، وأيضا حسبتك أعقل من أن تصدقي مثل هذه الخرافات.

- ليست خرافات بل حقيقة أعيشها شخصيا.

- وكيف عرفت أنها حقيقة؟

فجأة! اقتربت مني وكأنها ستفشي سرا يستوجب عقوبة غليظة، اكفهر وجهها، وقالت: إنه الفقيه الذي يخافه كل الجن، قصدته يوما، وقد أخبرني أن الجن الذي يلازمني يعشقني، ويمنع الرجال من الاقتراب مني، وأيضا أنا مسحورة، وأصابتني عين حاقدة.

بدأت أعجب مما تنطق به، وحديثها اليقيني المصدق لكل ما أخبر به الدجال، طفت بعيني وقد وعيت أن أناسا يسترقون السمع، فلم هذه المواضيع تثير الناس! ولم يميلون للاهتمام بها، بل تصديقها.

خفضت صوتي قليلا، ثم قلت لها:

- هل رأى الفقيه الجني؟

أومأت برأسها للدلالة على ردها بنعم

- فكيف كان شكله؟

- له قرنان، قوي البنية، من نار حمراء وزرقاء.

!- وهل صدقت ما أخبرك به

- نعم صدقته، فإمكانية زواجهم من البشر واردة، وكذلك إنجابنا منهم.

لقد كنت غبيا لما حسبتني سأناقشها في التربية، وكيف يمكن تغيير سلوكات الناس، وما يلزمه من صبر، لكنني أدركت أنني أمام عينة يكثر أمثالها في المجتمع.

بعد تنهيدة قلت:

- هل أنت متعلمة؟

أجابت: نعم، مستواي الدراسي جامعي، لكن ما علاقة ذلك بالجن العاشق؟

- لأنني قرأت أنهم يعشقون النساء المتعلمات.

-لقد أخبرني الفقيه بالأمر، هل أنت أيضا فقيه؟

- لست فقيها، فالفقيه هو العالم بالأحكام الشرعية، أما من زرت فساحر دجال.

- وكيف حكمت على أنه ساحر، بل فقيه، معروف هذا لدى الناس.

- لا يمكن للبشر رؤية الجن.

!- وهذا الذي رآه يرافقني من يكون

- هل رأيت شيئا؟

- لا، ولا أريد، ولا أستطيع.

- دعك من هذا، ألا تصلين؟

- جحظت عيناها، لم تتوقع سؤالي، ثم قالت: لا أصلي.

- هل تقرئين القرآن؟

بنفس الحالة أجابت وهي تحدق بي: لا.

- هل تحافظين على وضوئك؟

- لا.

!- أتتعوذين من الشيطان الرجيم

- أجابت بعد شهقة خفيفة : لا.

ركنت الحافلة في محطة نزولي، وقفت قاصدا الباب الخلفي لأنزل، ولا تزال الحافلة مكتظة، والأشقياء أصوات أغانيهم ونقاشاتهم مرتفعة، التفت نحو الفتاة التي تبعتني بعينيها، فقلت لها: لقد عرفت أبناءك من الجن العاشق، إنهم هؤلاء.

تركت بعدها المسترقين للسمع بين ذاهل وخائف ومتعوذ، ناظرين نحو أولئك الأشقياء.

أدوار مقلوبة

يتملك الحاج عيسى الخوف حين ينوي زيارة الطبيب، ما كان له تجربة تعششت في عقله لا تنوي الخفوت، أو واقعة مُرة عابرة تراكمت فوقها الذكريات، هو تخوف يلازمه منذ زمن بعيد.

نفد صبره على آلام بطنه، وما نفعه هذه المرة العطار، الذي كلما رآه بدأ بخلط كل الأعشاب لديه، مؤكدا على أن الشفاء بيد الله، وهذه هي الأسباب الواجب اتخاذها.

الطبيب في نظر المريض هو كل من يفيض كلامه بأمل الشفاء، ينساب على قلب أخذ في التحجر باليأس ليزهر من جديد، ولو كان مخادعا يطبطب على الناس ليرتاحوا بمقابل مادي.

استيقظ باكرا وقد قرر أخيرا التغلب على هواجسه، مذكرا نفسه أن ما لم يقع يظل غيبا، ولا ينبغي توقعه.

ركب الحافلة، كانت مكتظة، لا بد أن يصبر، ففي المرات السابقة عدل عن عزمه بسبب صعوبة الوصول للعيادة.

وأيضا صم آذانه، لكيلا يسمع كما السابق تجارب عاشها مرضى مع أطبائهم، بين من نسوا مقصا في بطنه، ومن استأصلوا عضوا صحيحا عوض العضو المريض، ومن كانت جرعة البنج زائدة.

عند نزوله من المحطة هرول للعيادة، لكيلا يدع المجال لحديث النفس في الظهور، قدم بطاقته للكاتبة، وأخبرها أنه سيجلس في قاعة الانتظار حتى يصل دوره.

طاف بعينيه دون أن يركز مع المرضى، لكن شد انتباهه رجل هزيل البنية، مرتجف اليدين، في وجهه آلام السنين، كل ألم شق في وجهه طريقا شاهدا عليه.

جلس بجانبه، فبادره بالسؤال:

- مم تشكو؟

لم يشأ أن يتجاذب أطراف الحديث مع أحد، ومع ذلك لن يحرج الرجل:

- من القولون.

وبعد صمت لبرهة، سأله:

- إنه مرض العصر، يكاد لا يسلم منه أحد.

- نسأل الله العافية.

- وهل جربت طب الأعشاب؟ يقولون أنه نافع.

- سنوات وأنا أتداوى بالأعشاب لكن دون جدوى.

وتاهت الأعين شاخصة مرة أخرى، وخيم الصمت.

تلقت الكاتبة اتصالا من خطيبها، صوتها كان مرتفعا، ضحكاتها كانت مستفزة لمشاعر مكبوتة متعبة.

بعد نصف ساعة دخل الطبيب.

قال الرجل للحاج عيسى:

- ها قد أتى الطبيب، سيبدأ الآن الكشف.

تساءل الحاج تساؤلا يبدو غبيا:

- وبم عرفت أنه الطبيب؟ هل سبق أن زرته؟

- لا، ولكنه هو، أما ترى وزرته البيضاء الناصعة! أو نظارته! أو سماعات القلب!

- وهل هو طبيب بهذا؟

ثم سكت وهو يضحك، وقد رأى الرجل ينظر إليه مستغربا، وكأنه يقابل لأول مرة من يشكك في المسلمات لدى العامة.

وحتى سؤال الحاج عيسى كان للمزاح ليس إلا، وما قصد غير ذلك.

بدأ نداء الكاتبة للقادمين الأول فالأول، إلى أن حان دوره، عليه دفع ثمن الكشف.

مازحا قال:

- والذي لا يملك التكلفة، هل نسلمه للموت؟

- لكنها أجابت بعنفوان:

- حتى الميت يدفع ثمن قبره، لا شيء مجاني في حياتك، ولا حتى بعد موتك.

تنهد بأسى:

- للأسف صدقت.

- إذا ادفع التكلفة وتفضل، الطبيب في انتظارك.

- إن معاملتك فظة، الناس المرضى يحتاجون للرفق.

ردت وهي تلوك العلكة بأسلوب بغيض:

- لا أجيده، ورجاء الطبيب مستعجل اليوم.

- ولم العجلة!

- كل خميس يجري العمليات لمرضاه في مصحة خاصة، وإن احتجت عملية جراحية ستجريها هناك.

لقد تذكر أنه من بدأ النقاش، وعليه أن يتحمل نتائجه، صمت حانيا رأسه، قاصدا الطبيب، الذي وجده شابكا يديه، مبديا تذمره من تأخره.

سلم عليه، فكان صوت رد السلام منخفضا، جلس، ثم بعد برهة سأله الطبيب:

- مم تشكو؟

ذكره بالرجل الذي التقاه في قاعة الانتظار، فذاك نفس سؤاله.

- أشكو من القولون.

طلب منه التمدد على الأريكة، ورفع ملابسه، ليتأتى له فحصه.

- لا يظهر فيه ما يدعو للقلق، لكن إن أردت التأكد أكثر تفحصه بالمنظار الداخلي.

- هل سيكون آنذاك التشخيص دقيقا.

- نعم.

- لكن قبل ذلك سأصف لك دواء لمدة شهر، وبعدها تعاود زيارتي.

- حسنا.

- ولا تنس ابتعد عن الحليب ومشتقاته، المشروبات الغازية، المأكولات الحارة، والقهوة...

وقبل أن يفتح الحاج عيسى قوسا للمزاح قائلا: لو أخبرتني عن الأكل المسموح به لكان أيسر، لكن بتذكره ما حدث مع الكاتبة، أعرض عن الأمر.

كتب الدواء بخط جميل، وكان هذا من أعجب ما صادف" هل أسأله عن هذا، كيف يكون لطبيب خط واضح مقروء! أليس هذا أيضا مما يميزهم! إني أفضل الصمت، قد تكون ردة فعله قبيحة، ولا طاقة أملكها لصراع يمكن تفاديه".

قصد بعدها الصيدلية لشراء الدواء، لكن الصيدلاني تعجب أن ما كتب ليس دواء، إنما زيت المحركات، الأمر الذي لم يستوعبه الحاج عيسى، خطف الورقة من يد الصيدلاني، حدق بها ثم قال : بئسا كيف لم أنتبه لما كتب.

قصد العيادة، من سوء حظه وجدها مغلقة، فقد كان آخر مريض.

ما درى ما العمل.

مشى حائرا في طريق عودته، وليس عبثا أن رأى ميكانيكيا، بلباسه الأزرق المتسخ، وهو شبه الطبيب، منشغلا بجد في إصلاح سيارة، فرحا مستمتعا بعمله.

دلك عينيه كأنه كابوس يرجو الاستيقاظ منه، ولكم تمنى رجوع الزمان وأخذه خلطة العطار.

سار إلى أن اقترب منه، ألقى عليه التحية، وما إن رآه الميكانيكي حتى رجع القهقرى.

آنذاك أمسك به، وبدأ بالصراخ: اتصلوا بالشرطة، هذا مخادع، يدعي أنه طبيب، ثم نظر نحوه بحنق شديد قائلا: أهذه هي العمليات التي ستجريها للناس يوم الخميس، وتكتب لي زيت المحركات عوض الدواء، هل حسبتني سيارة!

متمتما أجابه:

- تبا لقد اختلط علي الأمر، لكن دعني لأشرح لك الموضوع.

- أي موضوع يا مخادع!

- لقد كنت شغوفا بالميكانيك لكن والدي أصر علي للالتحاق بكلية الطب، كنت مضطرا لمطاوعته، ومع ذلك لم أتخلَّ عن شغفي، لست منتحلا لصفة الطبيب، لأنني طبيب فعلا.

- وتريدني أن أصدق هراءك، لن أفلتك حتى تحضر الشرطة.

لم يتنازل بعدها الحاج عيسى عن دعوته رغم محاولات الطبيب استمالة عطفه، ومساومته، وكأنه أمام صخرة صماء.

لكن القاضي قد حكم ببراءة الطبيب، فقد كان ما أخبره صحيحا، لأنه تخرج من كلية الطب بفرنسا، وقد عفا عن خطئه، فلا يوجد من يحاسب الأطباء، خاصة خريجي فرنسا.

عند سماع الحاج عيسى للحكم، قصد القاضي، أمسك بتلابيبه، قال بصوت جهوري:

- الظاهر أنك كنت شغوفا بالعزف على آلة القانون في فرقة موسيقية، قبل أن يُفرض عليك القضاء.

اختبار الرجولة

مع أول إشراقة للشمس على وجهه، قام من نومته على صياح الديك، بعدما أسهره أنين ابنه، المتوجع من ألم ضرسه.

شرب الحساء الساخن مع سبع تمرات، كما كل صباح.

أيقظ ابنه ليصطحبه عند " سي حمد " الذي اقتلع ضروس أغلب أبناء القبيلة، وحتى آباءهم، فهو شيخ عمر طويلا، أتم المائة سنة.

تكوم الابن ممررا يده على خده المنتفخ، وقد تجلت أمامه مشاهد اجتماع الناس حول من أتوا بهم مكرهين، وتردد في أذنه صدى صراخهم.

لكن الأمر الآن مختلف، فهو ليس متفرجا، إنما يرى نفسه الضحية.

لن يتراجع والده عن قراره، ولو تلوى على الأرض أمامه، أو حتى تقاطر الدم من عينيه عوض الدمع، فوالده لا يعترف بالاختلاف، هو من المحافظين على كل شيء، لباسه، معيشته، أسلوب كلامه، تعامله مع أسرته، هو على صواب دائما.

يتوافق اليوم مع السوق الأسبوعي، وقد كان محظوظا، فلولا ذلك لانتظر حتى قدوم " سي حمد " يوم السوق.

الغبار يتطاير ليحط على وجوه الناس، وعلى ملابسهم وأحذيتهم، ولا مكان هادئ، الكل في هياط ومياط، وحركة دؤوب بين ملتحق خفيف الحركة، ومغادر تعب، محمل بما اشترى لسد كفايته لأسبوع.

مرتعدا يتبع والده الذي لبس الجلباب، ووضع يديه داخل جيوبه ليعقدهما خلف ظهره، مشيته لا تزال سريعة، فقد كان مشاء، لا يركب لقضاء حاجياته، إلا ناذرا يمتطي ظهر حماره، إن كان سيعود محملا بما لا يطيق حمله.

عيناه جاحظة، كأنما سيتم تقديمه للذبح قربانا، ولا يملك غير التسليم لاختيارت والده، فهكذا فعل مع إخوته الذين يكبرونه سنا، بل حتى مع أخواته، وكذا مع أمه التي لم يرأف بها.

مع اقتراب الخطوات من مكان " سي حمد "، سُمع الصراخ، والناس يتحلقون، يتفرجون على أسلوب قل نظيره، فقبل أن يبدأ عمله، يحمل كلابه الصدئ، يغمسه في كوب مملوء بماء مختلط بالملح، ويتيه بعض الوقت في نسج حكاياه التي لا تنتهي مع ضروس عنيدة اقتلعها بمشقة.

ذاك الصراخ كأنه دوي إنفجار اضطرب معه القلب الصغير، أطل برأسه مكفهر الوجه، مترنح الوقفة، ليتمعن في ذاك الجالس وقد طوقه أربعة شداد، يمسكون به كأنه ارتكب جرما قبيحا، ذاهلا من رؤيته الكلاب يهوي إلى فم المسكين، وضرس يطير في الهواء ليلتقطه " سي حمد " ويدقق النظر فيه.

- حمدا لله على سلامتك، هذا الضرس لو تأخرت قليلا لتجذر في فمك، وسيكون آنذاك اقتلاعه عسيرا ومؤلما.

شد الأب يد ابنه، ونفس ما قيل لإخوته قيل له : أريدك رجلا، إياك أن تُضحك عليك الجمع، إياك والبكاء إنه من طبع النساء.

كانت دموع الابن عند طرف عينيه، والآن سيكفكفها ولو وضع عليهما إسفنجة تتشرب ما تَقَطَّرَ منهما.

حان دوره، همس ل " سي حمد " بأنه عطشان، يريد بعض الماء، سكب له كوبا، تجرجر الماء في حلقه من شدة خوفه، وجب القلب لتصعد دقاته إلى عروق رأسه، وتذهل العيون وهي تحوم ناظرة في الوجوه المترقبة نزع ضرسه، وكأنه رأى فيها فرحا بألمه، وكأنهم كلهم بلا استثناء أعداؤه.

جلس فأمسك به الرجال الشداد، " سي حمد " بدأ في طقوسه، تركه الرجال في دهشة، فقد غط في نوم عميق.

لم ينم قبله أحد في ذاك المكان.

ما إن حمل " سي حمد " كلابه، مطلقا يده اليسرى، فاتحا بها فمه، حتى أفلت منه، وراح يطوي المسافات فارا من وسط السوق، وراح والده يجري خلفه بعدما رفع جلبابه، وجمع غفير يركض ويصفر..

لقد شعر أنه حر، يركض ويبكي.

نواسيَّان

حين يسدل الليل ستاره، آخذا في ظلمائه النور، يلتقي الصديقان بعد انتهاء دوامهما، هو موعد لا يتخلفان عليه.

رسائل عبر الهاتف لا تهدأ طول مدة العمل، تحفيزا لذاكرتهما خشية النسيان، ولن يستقيم ليلهما إلا إن كانا معا.

يسيران وقد تركا خلفهما فراغا شاسعا، ويشقان أمامهما فراغا شاسع، يرافقهما الصرَّار كأنه يتقفى أثرهما، أو يشي بهما لمن يهمه أمرهما.

فوق التلة المطلة على البحيرة الهادئة، فراشهما من الكرتون، لا يصل هناك أحد، يوقدان النار، ويتقابلان ليبدأ سمرهما، يملأن الأقداح، يهيمان مع النجوم المتلألئة في السماء، يقسم أحدهما:

- لقد رأيت بأم عيني نجما مات، وتحول إلى وحش أسود ابتلع كل من حوله.

ويقول الآخر:

- النجوم لا تموت، ليس لها روح، ولا نفس.

- إنه فناء، يختفي بعد نفاذ طاقته، وكلما كان حجم النجم كبيرا، كان فناءه أسرع.

- وهل القط يموت؟

- أيهما تقصد، المتعايش مع الناس أم الوحشي؟

- وهل يوجد قط وحشي؟

- ألا يوجد حمار وحشي، وآخر إنسي؟

- بلى.

- إذا فالقطط أيضا فيها الوحشية.

- كيف هو شكله؟

- كشكل الحمار الوحشي، لكنه قط.

- دعك من القطط، للتو مر من أمامنا عصفور، هو ليس عصفورا بل ماعز، وله جناحان، أرأيته؟

- لم أره، لكن تلك البحيرة فيها كائنات غريبة، أمعن النظر، ألا تظهر لك صورة تنين.

- وهل يوجد تنين مائي!

- كل شيء ممكن، أما تذكر حين ظهر الديك يتبعه الفراخ، حسبوه دجاجة.

تتعالى قهقهاتهم، تتردد بين الجبال فيفزعوا، ليقوما ملتفين حول نفسيهما، كأنهما صوفيان في حضرة، يجلسان مجددا بعد دوار شديد يصيبهما.

- إن تلك الشجرة تتراقص، غصونها المورقة كشعْرٍ منسدل على أكتاف، إن قوامها رشيق.

- من هي؟

- شجرة التوت، شعرها أحمر متوهج.

وتأخذهما الثمالة في حمرة الشعر، والوجه النضر، والمشية الرشيقة.

غراب يقترب، لا هو كيس بلاستيكي أسود، صوت النعال، من هناك، يصرخان بأعلى صوتيهما، ومع تردد الصدى، يقفان كأنهما صوفيان، يطوفان، ويطوفان، ويطوفان، كعبتهما قارورات النبيذ.

- لماذا حرمت الخمر؟

- لأنها تذهب العقل يا صاح.

يتلمس رأسه، وقد رفع عينيه للأعلى، يقول متعجبا:

- لكن رأسي في مكانه، لم يذهب، المس رأسك، هل تجده؟

- حتى أنا في مكانه، يا لنا من أغبياء!

- العقل ليس هو الدماغ، لا أحد يعرف ما هو.

- تعب من حصره في موضع، وتاه من حاول معرفة ماهيته، فهل نفهمه الآن ونحن نعاقر الخمر!

- الخمر!

- الخمر!

- الخمر بلون الدم.

- تسري في العروق.

- كوسوسة الشياطين.

صوت الصرار ارتفع، يقفز الضفادع حولهم، نقيقهم مزعج، نعيق الغربان المتهاطلة على الهضبة، صهيل أحصنة قادمة من بعيد.

مكان البحيرة أصبح فجأة مسبحا كبيرا، يسبح فيه الناس.

الغربان صارت نوارس، الضفادع تحولت سلطعونات يتبعها الأطفال في حذر.

ومع صمت الصرار يختفي كل شي، يبزغ الفجر، يسلم الليل الصباح المشعل، لينهضا ولا تزال الأرض تدور من حولهما، بعد
اخضرارها الذي ما لبثت أقدامهما تدوسه حتى سمعا صوت الحُطام.

ويتيقظان، ويشهقان، ويلحظان سوءتهما قد تبدت، دون أن يجدا ما يواريها.

لقد تعاهدا، كلما خافا إلْفَ النعمة، قدما إلى حيث كان لقاؤهما الدائم، ليسترجعا ماض يتمنيانِ لو قُطع من شريط حياتهما، ثم يرجع كل منهما بعد ذلك إلى ليل يطول فيه الابتهال والاستغفار.

محكمة الصراصير

لم يذكر شيئا غير رؤيته لصرصور يدنو من قدمه، ومسارعته لقتله بالدوس عليه.

ما إن فتح عينيه بعد غمضة قصيرة، وجد نفسه مكبلا بالقيود خلف القضبان، تجلت أمامه قاعة محكمة ولا متهم سواه.

ضرب شديد بالمطرقة، وصوت عال ينادي: محكمة.

القضاة صراصير، والمحامون صراصير، والحضور أيضا صراصير، إلا هو من بني البشر.

عائلة الفقيد تصرخ : حاسبوا المجرم، إنه قاتل ولا بد أن يعاقب.

المحامون يترافعون ضده: حسب قانون الصراصير لا يجوز قتل الصرصور.

هنا نادى : ولكنه من هجم علي!

أجابوه: حسب القانون لا يُسمح لك بقتله، حتى لو اعتلى جسدك وعبث فيه.

قال: وأي قانون هذا!

قال القاضي: قانون الصراصير.

- وهل قانون الصراصير يبيح لهم الإفساد دون أن يُعاقبوا؟

- أنت الآن في مملكتنا، وسنحكم عليك بما نريد.

خفق قلبه، فقد تأكد أن ما يشاهده ويسمعه حقيقة، وهو مكبل بإحكام، ولا مفر من عقاب ظالم في محكمة الصراصير، وكم تمنى لو لم يفكر حتى في رفع رجله وقتل واحد منهم، لكن فكره يرجع القهقرى قائلا: ومن أين لي بمعرفة شيء كهذا، عجبا!

قبل النطق بالحكم، اقترب منه صرصور باد عليه كبر السن، دنا منه أكثر فأكثر، ثم همس في أذنه: مستعد أن أخلصك من مأزقك، لكن شريطة أن تُشِيعَ بين بني جنسكم أننا مملكة عادلة.

- ولكن أين العدل فيما تفعلون! اعْتُديَ علي ومع ذلك صرت المذنب.

- لا شأن لي، قدمت لك عرضا وأجبني جوابا واحدا، تقبل أم ترفض.

- غاضبا قال: طبعا أرفض.

- إذا انتظر الأسوء، أنت لا تدري ما الذي سيحل بك، تقَدِّر ذلك بصغر حجمنا، إننا أشداء، إذا طفت في هذه المملكة ستجد أنها قائمة على بني جنسكم، إنهم الحراس والجلادون، طيعون لا مقاومة فيهم.

- هل لي بسؤال يا شيخ الصراصير؟

- لقد رفضت عرضي ومع ذلك لا حرج اسأل.

- كيف أقنعتم البشر أن يصيروا خداما لكم؟

- لقد أتينا بأول واحد منكم ثم كان الوهم سلاحنا، لقد ملأنا فكره رعبا، وهولنا له قدرتنا على تعذيبه، وليس فينا الأقوياء، وقد دُست على العديد منا، ولم تَجْهَدْ، لكننا طوعنا الناس بعد ذلك تباعا، وصرنا أقوياء حقا، بالوهم فقط.

- أليس هذا سر تبوح به!

- إنه سر لا يمكن إشاعته، لأنك لا محالة ميت.

حان موعد النطق بالحكم، تصبب العرق من جبينه، ولا زالت تتراءى أمامه صورته وهو يقتل الصرصور.

أهذا حقيقي! أكاد أُجنُّ، هل مصيري بين يدي الصراصير! وهل نهايتي هنا!

تم الحكم على المتهم بأن يدوس عليه بنو جنسه حتى تزهق روحه.

التهبت قاعة المحكمة تصفيقا، وهنَّأَ بعضهم بعضا.

أغلقوا فمه، اقتادوه إلى ساحة قرب المحكمة لتنفيذ الحكم.

عينه تطوف يمنة ويسرة، منفذو الحكم من البشر، ولا يدري ماذا يستفيدون مع الصراصير ليكونوا حراس مملكتهم!

ألبسوهم نعالا عالية ثقيلة ليحس بألم الدوس.

سهام تتهاطل على الساحة، تفاجأ بها المتجمهرون، جيش عرمرم من النمل أتوا لإنقاذه من قبضة الصراصير.

فر الكل، فالجيش لا يمكن إحصاؤه ولا مواجهته، تقدموا ففكوا وثاقه، ونزعوا الشريط اللاصق عن فمه.

نادته نملة: لقد أطعمتنا ذاك الصرصور الذي قتلت، ولا يمكن تركك وحيدا أمام هؤلاء الطغاة ومن يواليهم، كنا على استعداد أن نفديك بأرواحنا، فمعروفك لن ننساه.

انصرفوا بعد أن ألقوا التحية عليه.

تنبه على رؤيته النمل حاملا الصرصور.

ما وراء السور

بدا الجو رتيبا، لا جديد فيه، فالسور لم يزره الناس منذ أسبوع، وهذا الهدوء لم يعتادوا عليه.

أين تهاليل المُتعبين، الراجين طمأنينة تتنزل على قلوبهم، أو فتحا لما استغلق من حياتهم، أو شفاءا لداء مستعصٍ، أو رزقا يفيض عليهم.

البشرى هلت من بعيد، انشرحت معها الصدور، وبشت معها الوجوه العابسة.

تقترب سيدة بمشية حذرة متسللة، تحمل ديكين وديكين أسودين.

إشارة الطفلة التي تراقب من ثقب في السور، تلقتها والدتها لتجر رجلها المُثقلة ببرودة تمكنت من التغلغل في عظامها، سحبتها من ثيابها لتقحم عينها في الثقب، تتراءى لها تلك السيدة المتأنقة، يداها لا تكاد ترى بالأسورة الذهبية، أذناها مزينتان بحلقات ماسية، عنقها يلتف حوله عقد بأحجار كريمة خضراء.

فما حاجتها، ألم تكتف بما تملك!

وتلتفت لتشاهد بناتها الرث لباسهن، المنحولة وجوههن، المنكوش شعرهن، وزوجها مسندا ظهره على الحائط، لا يهدأ من التأفف.

من يقصد السور يجلس ليحكي ما يريد، والشائع أن من خلف السور يسمع، ويحقق العجائب، والحكايا لا تعد ولا تحصى.

ومن أغربها، والأكثر تداولا، رجل أعمى، بكى بكاء شديدا، واضعا رأسه على السور، محركا شفتيه، وما هي سوى لحظات قليلة، حتى ارتد بصيرا.

حادثة تواترت من جيل لجيل، حكاية عن امرأة خرساء شاهدتها عيانا.

جلست السيدة بمحاذاة السور، وبدأ حديثها: إنني امرأة غنية، لا أريد المال، عندي ما يكفيني العمر كله، لا أرجو غير قلب، قلب يحنو، يعطف، يريدني لا يريد مالي، يامن خلف السور، أرجوك حقق لي رجائي، وهذان الديكان لك.

ورمت الديكين.

تلقفتهما البنت، أسرعت بهما نحو والدها الذي تناول السكين، ليمرره على عنقهما، وبعدها يوضعان فوق قدر الماء، الذي وُضع على نار الحطب، ليبدأوا نزع الريش عنهما.

تغادر السيدة لتترقب في قادم الأيام القلب العطوف الحاني.

في المساء تجتمع الأسرة على طاجين الديكين البلديين، حديثهم إشارات بالأيدي.

وبعد العشاء يغطُّون في نوم عميق دون شخير.

الضريبة

أتاني " بينوكيو" شاكيا: لقد كذبوا علي، جعلوا من اسمي أضحوكة، ألم يجدوا غيري يضربوا به المثل.

بدأ أنفه يطول، وحين غمرتني الدهشة، لم يمهلني حتى أخبره بالأمر، فوجدت سبابته كأنها تنوي اختراق صدري، وقال: إن كل الكذابين يرون أنفي يطول، لكنه نفسه لا يزيد قيد أنملة.

أحجمت لساني، وتابعت الاستماع إليه، محاولا الإعراض عن التحديق بأنفه.

ثم أكمل: هل كذبت حين رأيت أحدهم يحمل في حقيبته الطعام، ولما سأله أحد المساكين حاجته للأكل، أقسم أنه لا طعام لديه.

استوقفته: قد يكون قصده أن الطعام لا يكفي لشخصين.

نهرني: لكنه لم يفسر ذلك، أأنا الكذاب؟

قلت مُرغمًا: لا

وتابع: قد أقسمت في يوم للناس أن مثلث برمودا يسكن في عمقه قوم لا يحبون من يزعجهم عند احتسائهم للشاي، فاخترعوا مغناطيسا عظيما، قوة جذبه عالية، لكنهم أنكرواعلي ذلك، واتهموني بالجنون والكذب، أأنا مجنون؟ أأنا كذاب؟

قلت: لا.

- ارتطمت برأسي حجرة عظيمة، شجَّت رأسي، لم أعلم مصدرها، نمت قليلا ثم صحوت، فاختفت الشجَّة، أأنا الكذاب؟

قلت: لا.

- مات عصفور أمامي، حملته ورميت به للهواء، فطار، أأنا الكذاب؟

قلت : لا.

- ركضت أسرع من القطار، أأنا الكذاب؟

قلت : لا.

وظل يكذب، لكنني قررت الصمت، وبقيت أروغ عن أنفه بوجهي، بجسدي، برجلي، كأنني راقص محترف، حركاته مضبوطة على إيقاعات موسيقى موزونة، ولو أنني تعبت أكملت الرقص.

يد آثمة

كانوا ثلاثة شبان، الخوف غشيهم من رؤوسهم إلى أخمص الأقدام، الليل داجٍ، والمكان موحشٌ، الخفافيش تطير بدون وجهة في صمت.

عليهم أن يتغلبوا على الخرافات المتجذرة في نفوسهم، وكيف لا وهم أبناء مجتمع يمجد الخرافة.

لكن الأجواء رهيبة، تجعل الجلَد يرتعد، ففي النهار تخر قلوب وتُخبت مع ذكر هادم اللذات، وتتأمل العيون، وتتسع حدقاتها، شاخصة نحو اللحود.

ولأن اقتحام أي عقبة لأول مرة يلزمه عزم، تهافتت كل جرأة أبدوها قبل أن يتجلى أمامهم الواقع.

قال الأول في جد: سنهبش القبر، ونقطع اليد، لن يلزمنا وقت كثير، ولا جهد كبير.

وقال الثاني: اتركوا لي أمر الهبش، فلكم حرثت الأرض في البادية.

وقال الثالث: وأنا أقطع اليد، دائما تعتمد علي أسرتي في تقطيع خروف العيد.

وتعهد الأول بأن يكون مراقبا يقظا.

تنقضي ساعات الليل، ولم يحرك أحدهم ساكنا، ويبدأ الخيال ينشط، ويرتفع صوت الضمير.

- إن السكون هو السبب، لا بد أن نتحرك، يقول أحدهم.

- الليل سُترة، لا يرانا أحد، يقول الثاني.

ولم يقل الثالث شيئا، وما بقي بجانبهما، غادر دون وداع.

زاد قلقهما، وتفصد جبينهما عرقا، فلم يخبرهما شيئا، وآخر تفكيرهما أن يكون بخير

- هل ابتلعته الأرض؟

- هل أصابته اللعنة؟

- هل نظل هنا، أم نمضي لحال سبيلنا؟

- لا بد أن نرجع بيد.

- لكن أين نجدها؟

- ها هي القبور أمامنا، والجثث مدفونة فيها.

- لكننا لم نستطع التحرك حتى، أنستطيع هبش القبر، وقطع اليد؟

- صدقا، إن يدي ترتجف، وساقاي، وعقلي بدأ يختبل.

- ما العمل؟

- نحتاج اليد كي نبيعها.

- لم نجدها، لنعد أدراجنا.

ثم تجلت الفكرة مع تنهيدة، المهمة ليست كما توقعوها.

قال أحدهما بأسلوب لا مبالٍ، مرسلا عينيه كالخفافيش من دون وجهة:

- نقترع.

وأجاب الثاني وقد تمدد على بطنه، واضعا جبهته على الأرض:

- على ماذا؟

- أي يد نقطع.

- اختر أنت، اليمنى أم اليسرى؟

- إن كان سهم القرعة سهمي أختار اليسرى، لأنني أعتمد على اليمنى.

- إذا اليسرى.

- مازال عقله هائما، ويجيب:

- لم نقترع بعد.

حك المتمدد على بطنه جبهته على الأرض، فهو الذي تعتمد عليه أسرته في تقطيع خروف العيد، انشقت الأرض، سحب يد الميت، وقف مستعجلا، قائلا لصاحبه: لا حاجة للاقتراع، ثم لم يتمهل فقطعها.

ومع سماعه للصراخ، دفعه الذعر للهرب، وخلفه دم منسكب على الأرض، ويد في ارتعاشها الأخير.

ورقة جموح

كل صباح يقصد محل القمار، حاملا معه جريدة تحتوي أسماء الخيول، ومرات فوزهم، يجلس على كرسي، أرقام يدونها في مسودته.

الدخان يعلو السقف، وجوه مكفهرة، وأخرى مشدوهة مركزة على الأوراق، كل وقلمه، لا حديث بينهم، كأنها قاعة امتحان.

لقد قضى عمرا طويلا محاولا الإمساك بأحلامه، انتقال من الفقر الذي يقبع فيه، إلى الترف، ولكي يلج عالم الأحلام ذاك، يتوجب عليه دفع ثمن التذكرة، خمسون درهما لكل يوم، نصف أجرته اليومية في عمل البناء، يتصبب عرقا ساخنا ليضعها بين يدي صاحب المحل، الذي لا يبذل أي جهد إلا تسليم أوراق الوهم، وتسلم أوراق نقدية.

لو تأمل في حال الكثيرين لعلم أنه في نعمة، فمن يفقد ما يملك يرجو جزءا بسيطا مما هو فيه.

يقصد المقهى القريب من سكناه، منتظرا سباق الخيول، كأنه من يركض، وحال انتهائها ينهج، ثم يمزق الورقة ساخطا على حاله، مقسما ألا يعاود الكرة.

ما إن يستيقظ في صباح اليوم الموالي حتى تسحبه العادة إلى فلكها، نفس التركيز على الأرقام والأسماء، نفس السخط، نفس الندم، بعدها إلى عمله تحت حر الشمس، يحمل الطوب على كتفيه، يبني الأسوار

التي يرجو أن تنهد من طريقه ليتأتى له ولوج عالمه الذي بناه في فكره.

مثقلا يرجع آخر النهار، متعب الجسد والروح، متطلبات بيته يوفرها بشق الأنفس، ولولا القمار لكان في سعة أحسن مما هو عليها.

ليله يرسم فيه ما شاء، يهيم مع وقائع يشكلها كما يريد، ألبسة من " ماركات عالمية "، ساعات ومجوهرات، وجيوب ممتلئة بالمال دافئة.

في العادة لا يهتم لأمره أحد، وكيف سيهتم به الناس! فالفقراء صداقاتهم قليلة لكنها صادقة، لا مصالح فيها، من أحبهم أحبهم لذاتهم فهم لا يملكون شيئا، أو هذا ما يظنون، فلا قيمة لشيء بقدر قيمة الإنسان نفسه.

بعد محاولات عدة، استنزفت كل قواه، وكذا ماله، أخيرا ورقة المراهنة التي يمتلك هي الرابحة.

لم يستطع كبح فرحة طال انتظارها، مع رؤيته للخيول الفائزة بالسباق، ونفس ترتيبها ما في الورقة بين يديه، نظر بعين مركزة للأرقام على الشاشة، صاح دون أن يشعر : لقد فزت.

التفاتة جماعية لكل من بالمقهى نحوه، قبض بعدها راحته، فرار ريمٍ من أنياب ليث فرَّاسٍ، صعد لغرفته، أغلق الباب.

نادى على زوجه ليخبرها بالأمر، ولم تتأخر كثيرا لتسأله:

- كم ربحت؟

- أموال طائلة، طائلة.

- تعلم أنني أحبك، واعذرني فالحياة هكذا، ولو علمت أنك ستفوز يوما لصبرت، وما كنت لأتلفظ بأي كلام جارح.

ثم صمتت قليلا لتردف:

- ماذا لو لعبت بمائة درهم؟

- سيتضاعف المبلغ.

جبدت رداءه بشدة.

- يا لك من غبي، كان عليك أن تغامر أكثر.

أفلت منها بعدما تردد في أذنه كلامها اليومي، وتذمرها من قلة ذات اليد، أومأ لها برأسه، برزت أسنانه:

- عجبا، أأنت التي لم يهدأ لسانك يوما عن الرفرفة!

- لقد كنت أعاتبك فقط على تضييعك المال في القمار، ويا ليتني شجعتك، هل عرف أحدهم أنك ربحت؟

- نعم، لم أتمالك نفسي في المقهى، صحت لما علمت أنني الفائز.

- لم لم تصبر حتى تأتي إلى هنا، وافرح كيفما تشاء.

- وهل يصبر الفقير على ربحه المال؟

انقلب حال زوجه فجأة، مبدية ضرورة تغيير المسكن، تعلم أن الناس لن تتركهم بسلام.

وافقها أيضا، ولا تزال نشوة الربح تجول في خلَدِه.

نداء من وراء الباب التقطته أذنه:

- افتح الباب، نريد الحديث معك فقط.

انسل ليقترب:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- أنا مبعوث ساكنة الحي، أريد أن أقدم لك عرضا، فالساكنة لن يسمحوا لكم بالمغادرة.

- عرض! أي عرض!

- تريد الساكنة نسبة ثلاثين بالمائة فقط مما ربحت، ولتنعم أنت بالباقي.

برزت عروقه، صاح غاضبا:

- تبا لك ولكل الساكنة، لا شيء لكم عندي، هو مالي أنا.

أحس الأطفال بخطب ما غريب، لكن والدتهم طمأنتهم:

- هو نقاش عادي بين والدكم وأحد الجيران، أكملوا فطوركم.

قامت لتمسك يده:

- ماذا يريدون؟

همس في أذنها:

- يريدون نسبة من المال وإلا لن نخرج من هنا بسلام، يا لهم من أوغاد.

- لنتصل بالشرطة.

أخذ هاتفه، لكن مشكلا في الشبكة حال دون إجراء المكالمة.

انتفخت أوداجه، حرارة شعر بها صاعدة من قدميه إلى رأسه، ولكم فكر أن يحمل ساطورا يشق به كل من اعترض طريق خروجه، أو

هراوة ينهال بها على رؤوسهم، لأن قبح سلوكهم لا يوصف، هذا ولا يزال لم يصرف جائزته، هي ورقة بيضاء فيها أرقام.

في الزقاق نقاش على مدى ساعات، الرجل بجلبابه يظهر عليه الوقار، ما ترك أحدا إلا وأقنعه بأنهم لا يفعلون حراما، فهو ابن حارتهم، وحقه كحقهم.

وتلك امرأة تخبر الجالسات معها أنها جادت على زوجه مرارا بما تحتاجه، وما سبق لها رؤيتها.

ومن كان في محل القمار يقسم أنه من أشار له على الأرقام.

دنيا غريبة فعلا، وجيران أغرب منها، الكل يتهافت خلف المال، ربما لو كان شريرا لما تجرؤوا عليه، هذا ولم يفكر أحد أن القمار حرام.

جلس على كرسي في زاوية الغرفة، بينما هو يفكر في حل، جلس أبناؤه بقربه، مرر يده على شعر كل واحد منهم، حدق في وجوههم البريئة محدثا نفسه: " في الماضي القريب جدا ما كنت لأتعب، تلك الأجرة على بساطتها عشت بها، كنت في غنى عن موقف كهذا، ما ظننت يوما أن الخطر سيحيط بي لمجرد علمهم بكسبي للمال، فهل السعادة التي حسبتني سأعانقها بالمال مجرد وهم تسلل لفكري فاستلبه، أم أن الحرام هذه طريقه ".

تنبه لسماع صوت سيارة الشرطة، هرعوا ليطلوا من النافذة.

أسرع لفتح الباب لما سمع الطرق، وما إن رآه الشرطي حتى صفد يديه، سقطت زوجه مغميا عليها، وبكى أطفاله بكاء شديدا.

أخرجوه من المنزل، الناس بدأت بالتصفير، ونعته البعض بالسارق، رمق الشرطي بطرف خفي، قال بصوت خافت: لست سارقا، هؤلاء من اجتمعوا لسرقة ورقة المراهنة مني.

أجابه:

- سنسمع أقوالك، إنهم يتهمونك بسرقة الورقة من رجل مسن.

ارتخى فمه، توقف لينادي:

- أأنا السارق يا قوم السوء! تبا لكم جميعا يا عبيد المال.

إنه أمام تهمة السرقة، يؤمن أنه بريء، لكن القانون لا يعترف إلا بالأدلة، والدليل شهود عددهم كثير جدا، توحدت كلمتهم وخطتهم ضده.

في قسم الشرطة لم ينفعه قسمه أنه صاحب الورقة، فالمدعي أيضا يقسم، فأي قسم في نظر القانون هو الحق.

قال الضابط:

- يمكنكم حل خلافكم دون كتابة المحاضر، وعفا الله عما سلف.

أبدى المدعي استعداده للتنازل عن الشكاية شريطة إرجاعه للورقة الرابحة،

تملى جيدا في وجه الجالس أمامه، لا يعرفه، فمن أين ظهر، وقد أحسنوا اختياره، فوجهه بريء، ونظراته لا يشك أحسن خبراء علم النفس في صدقها.

سمع بكاء زوجه التي تيقظت من إغماءتها وقد تبعته لقسم الشرطة، وكذلك أنين أطفاله الصغار، حنى رأسه والدمع تدافع لينهمر من عينيه في صمت، الخطأ هو من يتحمله، فقد الوازع الديني الذي لو تبعه لما رمى بنفسه إلى طريق الحرام، عشر سنين وهو على تلك الحال، ولو وفر الخمسين درهما كل يوم لجمع مالا حلالا بركته ستدوم زمنا أطول من مال حرام لم يمسكه حتى، ومعه أهوال عظيمة عاشها في يوم واحد.

أخرج الورقة من جيبه، سلمها قائلا:

- هذا المال لعنة ستلاحقكم، اقتسموه بينكم، وأخبرهم أن ما فعلوا بي أعظم من امتلاكهم لمال حرام.

غادر مع أسرته، عانق زوجه وقد تنزلت على قلبه سكينة أراحت باله، نظر نحوها:

- حمدا لله، كل هذا ولم نحصل بعد على المال، فما ندري ما كان سيحدث لو حصلنا عليه.

أجابته وقد قطبت حاجبيها، واشتعلت عيناها في غضب:

- كنا لنصير أغنياء لو أنك أغلقت فمك في المقهى يا غبي.

عيون هائمة

إلى أعالي الجبال التي تعانق السحاب انطلق القوم، عاقدين العزم لبلوغ القمة المغطاة بالضباب الكثيف.

أتُراهم سيصلون!

حاملين على ظهورهم حقائب، فيها الزاد، كلٌّ وما يكْفِيه منه، ولن ينام أحد، لذلك لم يحملوا الأفرشة.

انطلاقات مختلفة، وخطط متباينة، البادئون بسرعة، والبادئون ببطئ،

والمتوسطون بين السرعة والبطيء.

الفرادى، الثنائيات، والجماعات.

المستوية مشيتهم، المترنحة خطواتهم، العرجى، المرضى الظاهر مرضهم.

إنهم مجانين، لا شك!

وقف قوم، سقط آخرون، انكسرت أرجل، شُجَّتْ رؤوسٌ، فُقِئَتْ أعين، وضمرت بطون.

واستمر آخرون.

كان الكل في جهد وتعب، مُشَمِّرين، راجين ألا يعودوا دون هدفهم الأسمى.

وحدهم الجالسون في السفح، يشيرون بسباباتهم لأولئك المجاهدين، المنهكة أجسادهم، المتصببين عرقا..

باسطين سُفرًا فيها ما لذ وطاب، تحت ظلِّ ظليل، قرب الوادي.

يضحكون، ويتغامزون.

النظرة الفارغة؛ نظرة خالية من العقل، لا تبصر شيئا، تائهة فيما يبعد عن الحقيقة، لا يرى صاحبها إلا قشورا مزخرفة، وأشكالا مبعثرة لا تنجمع.

إن العين وسيلة للعقل، ترسل صورا أولية يقوم بتحليلها، وبعدها يصدر أحكامه وفق قناعات صاحبها، فمن اختلت موازين فهمه انبهر بالمادي ليقدسه، وما غاص في عمق إدراك كنه الأشياء، التي هي الأصل، ولا قيمة لشيء إلا بكنهه، فهل لون الثمار وأشكالها ما ميز لذتها من سوئها!

وهل الإنسان إلا نفس وروح هما قيمته!

وهل المال والجاه والممتلكات من فضلوه عن سائر الخلق!

إن النظرة الفارغة عمى.

كوسكار للنشر الإلكتروني